دُخَان

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

الحقوق للقصاص بمصلحة الآثار

لم يكن موضوع الفقر والغنى ، أو العجز والمقدرة فى يوم من الأيام حقيقا بأن يكون محل اهتمام الناس ؛ وجديرا بأن يكون مثار انتباههم فى هذا البلد ؛ كما هو فى هذه الأيام .

وقد يتألم اليوم بعض من الناس عطفا على جمهور الفقراء ؛ ولكنى لم أعد أتألم لهم ، بقدر ما أصبحت أرتاح لأن يقاسى الفقراء كثيرا ، وأن يتألم بعض من الناس لما يقاسى الفقراء !

ولا أرى غرابة فى هذا ؛ فالانسان بطبعه لا يفكر فى حاله بين المجموع الذى يعيش فيه إلا عند ما تدفعه هذه الحال دفعا الى أن يهتم بأمرها وأن يفكر فيها .

وهكذا الفقراء ، وهم بشر كسائر البشر ، لا تدفعهم حالهم إلى التفكير فيها ، والانتباه إليها ، والاهتمام بأمرها ، إلا عندما تقسو عليهم الظروف قسوتها الكبرى ، وتشعرهم إشعارا لا شك فيه ، بأنهم فقراء ... وأنهم محرومون .. وأنهم عاجزون عن الحصول على ضرورات الحياة !

* * *

ولم يعد هؤلاء الفقراء يفكرون فى أن حالهم التى قسمت لهم كانت نصيبا طبيعيا مفروضا بحكم الزمان... وإنما أصبحوا يفكرون فى أنها حال فرضت عليهم فرضا ، وأن الذين فرضوها ليسوا غير بشر خلقوا خلقتهم ، لهم مالهم من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، أمام القانون وأمام السماء .. غير أنه تفرق بين هؤلاء وأولئك ميزة الغنى والمقدرة ، التى أصبح الناس يعتقدون بتقدم الأيام أنها ليست ميزة طبيعية خالصة ، وإنما هى كذلك من فعل بعض الناس .

والفقراء لا يفكرون فى أن بعض الناس قد امتاز هذه الميزة بجده وكفاحه ، وإنما يفكرون فى أن هذا البعض امتاز هذه الميزة بطرق شتى لا ترجع الى الكفاية .

ومن الطبيعى أن يقسم الناس إلى درجات — وهذا سر تركيب الكون وناموس الطبيعة ولكنى لا أفهم معنى لأن تكون إحدى هذه الدرجات عاجزة عن الحصول على

فالدرجات التي فرضتها الخلقة البشرية يمكن أن توجد ، ولكن يلزم أن يكون ، أقلها المقدرة على أن ينال كل فرد طعاما وكساء ومأوى ، وأن يبدو بين الكائنات البشرية كبشر لا كحيوان .

* * *

هكذا يفكر الناس اليوم ، ويبدو تفكيرهم فيما يتحدثون به بعضهم إلى بعض آخر ويبدو جليا في تحدث به الصحافة وهي مرآة الرأى العام . فلو أن أحدنا قرأ جميع الصحف اليومية الصادرة في يوم واحد ، أو جميع المجلات الأسبوعية الصادرة في أسبوع واحد ، لرآها غالبا تتحدث عن الفقر والغنى ، وعن العجز والمقدرة .

تتكلم الصحف جميعا عن هذا ، ولكنها تدور حوله كأنما تتحاشى أن تقول كلمة حق واجبة . ولكني أعتقد أن قول هذه الكلمة اليوم ، والتنبيه إليها الآن ، خير ألف مرة ومرة من الانتظار يوما آخر أو بعض يوم .

والنطق الملكي الكريم ، الذي تفضل به صاحب الجلالة إلى اللجنة البرلمانية في البرلمان السابق ، إنما هو نطق صادر عن حكمة وصحة تبصر بحقائق الأمور . وقد أشار جلالته إلى جوهر هذه الحقيقة في مواضع ثلاثة من نطقه الكريم .

فجلالته — حفظه الله — يقول : " إن العمل الذي أمامكم في هذه الدورة كبير خصوصا المشروعات التي تتعلق بالترفيه عن الفلاح والفقير" فالفلاح والفقير إذا قد أصبحا في حالة تستوجب أن يعمل الحكام ليرفهوا عنهما .

وجلالته يقول : "يهمني أن تتعاونوا مع الوزارة لمعالجة هذا الموضوع ، فلا يبقى فقير يشكو من الجوع ، ولا محتاج يطلب القوت". في مصر إذا فقراء يشكون من الجوع ، ومحتاجون يطلبون القوت ... الآن ، في القرن العشرين ، وفي عصر المدنية والنور !

ويقول جلالته : "إن عمل الحكومة وحدها في ذلك لا يكفي ، بل يجب على كل مالك ، كبيرا كان أو صغيرا ، أن يهتم بمعونة الفقير". هناك إذا أيضا ملاك كبار وصغار ، في استطاعتهم أن يعاونوا الفقير الذي يشكو من الجوع ، والمحتاج الذي يطلب القوت ، في استطاعتهم هذا ، وهو من واجبهم ، لكنهم لا يفعلون .

وإننا لنستطيع أن نتبين أن في هذا الوطن درجات من الناس لا في المقدرة ، وإنما في العجز والحرمان . ونستطيع أن نتبين أن العلاج لهذا التعاون يتلخص في ألا يبقى فقير يشكو من الجوع ، ولا محتاج يطلب القوت . ثم نستطيع أن نتبين أن هذا العلاج واجب على الحكومة ، وهو واجب على الأغنياء .

الحياة الهادئة المستقرة حق لكل أحد فى هذا البلد ، يضمنه للفقراء معاونة الأغنياء للحكومة ، كما قال صاحب الجلالة . فماذا يلزم عمله إذا قصر هؤلاء الأغنياء أو تردّدوا فى إجابة هذا النداء ؟

يلزم أن تنفذ الحكومة هذا الاصلاح بالتشريع . وفى استطاعتها — ومن حقها — أن تصحح هذا التعاون فى الثروات ، بطريق الضريبة التدريجية . وهى طريق مشروعة ومعمول بها فى الدول الديمقراطية . على أن تكون ضريبة كافية ومناسبة ، وأن يخصص الدخل منها لإصلاح حال هذه الطبقات الفقيرة ، ورفع مستوى معيشتها بين الناس .

هـذا هو الحل العملى القانونى المشروع لقصة "أغنياء وفقراء" فليتعاون البرلمان مع الحكومة فى التعجيل باصـدار تشريع يحقق تنفيذه هـذا الاصلاح أو ليعرضوا ما لديهم من حلول .

هذه هى الحقيقة التى تدور حولها مقالات الصحف ، ولكنها تتحاشى أن تطرقها طرقة مباشرة رأيت من الخـير أن تعلن صراحة للنـاس ، وقد جعلها صاحب الجلالة فى غير حاجة إلى بيان .

فليضع المسئولون فى هذا البلد أمام أعينهم هذه الحقيقة ، وليذكروا أن قضية الفقراء معناها قضية جميع العمال الجياع وأسراتهم ، وجميع الفلاحين العرايا وأسراتهم ، والطلاب العاجزين عن دفع نفقات التعليم ، والمرضى العاجزين عن الحصول على ثمن دواء أو محل فى مستشفى للعلاج . وهى أيضا قضية أسر صغار الموظفين ، وهم عجلات الآلة الحكومية ، وقضية المعلمين الالزاميين وهم عشرات الألوف فى جميع أنحاء البـلاد ، يسيطرون على تنشئة أبناء الشعب لمستقبل الأجيال ، وهى قضية أسرات جنود جيش الوطن .

كل هؤلاء فقراء ، هذه قضيتهم ، وهى قضية غير هؤلاء وأولئك من العاجزين ، هى قضية أربعة عشر مليونا من المصريين ، ولو تبصرنا الحقيقة لوجدناها أخيرا قضية جميع المصريين .

* * *

إننى أنظر خيوط الدخان التى كانت تتصاعد فى المـاضى من مثل هذا الحديث ، وقد تراكمت ، وتراكمت ، فإذا هى اليوم سحب كثيفة ، يبدو لى أنها تخبئ وراءها أمرا خطيرا .

فلتتـدبر الأمر ، حدّيا وعمليـا وفى أقرب وقت ، قبل أن نقف مبهوتين أمام هذا الأمر الخطير !

عماد الدين عبد الحميد